الحراك الثّقافيّ والسّياسيّ في أدب المرأة الفلسطينيّة المعاصر

د. هيفاء مجادلة

أكاديمية القاسمي– فلسطين

The cultural and Political mobility in the Palestinian women literature.

Dr. Haifa Mujadalah

مُلخّص البحث:

منذ نشأته، أدّى الأدب –بمختلف أجناسه–دورًا مؤثّرًا وفاعلًا في الحراك المجتمعيّ برمّته، فهو بمثابة الوقود المؤدّي لإشعال شرارة التّغيير في المجتمعات المختلفة بما يبثّه من أفكار ومفاهيم في شتّى القضايا. والأدب، على ذلك، يُجسّد أحد الأدوات التي تُسهم في تجذير ثقافة التّغيير في المجتمعات، من خلال تسليطه الضّوء على القضايا اليوميّة، وعلى المتغيّرات الرّاهنة بُغية الخروج بتصوّرات مستقبليّة تنبؤيّة لما سيؤول إليه هذا الرّاهن. الأديبة العربيّة لم تقف على الحياد، بل أسهمت في تعرية الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة التي تعيشها مجتمعاتها. لذا، مثّلت كتاباتُها ثورةً ضدّ نظامٍ بمختلف أقطابه، وكانت كتاباتها أشبه بانتفاضة أدبيّة نسائيّة ونسويّة ضدّ قيود المجتمع، ما جعلها أداةً من أدوات التّغيير الفكريّ والمجتمعيّ. وفي ظلّ ما يُعرف بالرّبيع العربيّ، وما يشهده العالم العربيّ من ثورات قادت إلى تغييرات حادّة وجذريّة أصابت هيكليّته ومسّت مختلف مناحيه ومرافقه؛ كان لا بدّ من الاهتمام بثقافة التّغيير، وبرصد العلاقة بين أدب المرأة العربيّة والحراك الاجتماعيّ والثّقافيّ والسياسيّ بل والدّيني أحيانًا. تتغيّا هذه الورقة رصد أبرز تمثّلات وتجلّيات الحراك السّياسيّ في أدب المرأة الفلسطينيّة، والوقوف على دورها في صناعة التّغيير من خلال رسمها لملامح الواقع المعيش، وذلك من خلال عرض نماذج أدبيّة نسائيّة فلسطينيّة.

Abstract:

Since its inception, literature - in all its forms and colors - has played an influential and active role in the social movement as a whole. It serves as the fuel for sparking change in different societies and disseminating ideas and concepts on various issues. Literature, therefore, embodies one of the tools that contribute to the rooting of the culture of change in societies, by shedding light on the daily issues, and on the current variables in order to emerge predictive future visions of what this will lead to. The Arab literary female writers did not stand neutral, but contributed to disclose the social, political and cultural conditions of its societies. Therefore, its writings represented a revolution against a system of various social, religious and political affiliations. Its writing was like a feminist literary uprising against the constraints of society, which made it a tool of intellectual and societal change. In light of the so-called Arab Spring and the Arab revolutions that led to radical and total changes that affected its structure and various aspects and facilities, it was necessary to pay attention to the culture of change and to monitor the relationship between Arab women's literature and social, cultural, political and sometimes religious movement. In light of this, this paper focuses on monitoring the most prominent

representations and manifestations of the cultural and political movement in the literature of Arab women, and their role in the industry of change by drawing on the features of the living reality. By presenting Palestinian women's literary models.

توطئة:

كان ضياع فلسطين وأحداث نكبة 1948، وما تبعها وصولًا إلى هزيمة حزيران بمثابة الشّرارة التي أشعلت فتيل الكتابات السّياسيّة والوطنيّة لدى الأديبة العربيّة؛ فانطلقت قريحتها تتفتّق عن كتابات تمسّ الهمّ الوطنيّ، والتّشبّث بالأرض، وتصوير التّمزّق المستمرّ الذي يتعرّض له الفلسطينيّ في الأرض المحتلّة، وعمق المعاناة الكامنة في إبعاده عن جذوره. تُفسّر نهى سمارة سيطرة الهاجس الفلسطينيّ على وجدان الكاتبة العربيّة بعد عام 1967، بكون النّكسة الحزيرانيّة قد أخرجت الكاتبات من دائرة بحثهنّ الحائر عن معنى الحريّة الذاتيّة، وعن الغوص الرومانسيّ، بل أخرجتهن من الذّات إلى الموضوع، من الدّاخل إلى ما يجري في الخارج[1]. إذا كان ذلك ينطبق على الأديبة العربيّة عامّة، فالأمر كان أقوى لدى الأديبة الفلسطينيّة التي عاشت في ظلّ احتلال إسرائيليّ ذاقت مرّ تداعياته وتبعاته، كما أنّه اكتسب خصوصيّة لدى الفلسطينيّة في أراضي 48 (الأديبة المحليّة) نابعة من واقع ازدواجيّ تناقضيّ، جعلها تعيش ضمن دوائر ثقافيّة وسياسيّة واجتماعيّة عديدة، فبالإضافة إلى دائرة الجندريّة التي تُقصي المرأة وتهمّشها بجريرة جنسها البيولوجيّ، وتفرض عليها أن تعيش في ظلّ مجتمع ذكوريّ يصادر الكثير من حقوقها؛ ثمّة اضطهاد آخر يُمارس ضدّها يقوم على خلفيّة هُويّاتيّة، فهي فلسطينيّة الهُويّة والانتماء، إسرائيليّة الهُويّة الورقيّة الزّرقاء. ورغم أنّها مواطنة إسرائيليّة وفقًا للقوانين الإسرائيليّة؛ إلا أنّها تُخوَّن وتعتبر إرهابيّة من قبل المجتمع نفسه الذي منحها هويّته، كما أنّه يُنظر اليها بريبة وكثير من الاتّهام من قبل العالم العربيّ ما دامت تحمل بطاقة هويّة مختومة بشعار إسرائيليّ.

وبذا فُرض عليها أن تعيش في ثلاثة مجتمعات متباينة: المجتمع الفلسطينيّ المحلّيّ داخل حدود دولة إسرائيل، والمجتمع الإسرائيليّ المهيمن والذي تحمل هويّته قسرًا، والمجتمع الفلسطينيّ في الضّفة الغربيّة وقطاع غزّة والقدس الشّرقيّة الذي تنتمي إليها وجدانيًّا وقوميًّا.

هذه التّقسيمات التي فرضها الاحتلال، ورسّخها من خلال وسائل إعلامه، أدّت الى اهتزاز المنظومة الهويّاتيّة لدى الفلسطينيّ، وخلّفت ازدواجيّة بين الولاء الجبريّ للدّولة، وبين الانتماء الوجوديّ للمجتمع الفلسطينيّ.

وقد ألقت تلك التّناقضات بظلالها على ما تكتبه المرأة الفلسطينيّة، فجسّدت هذا الـ"تعايش" القسريّ، وصوّرت معاناة الفلسطينيّ جرّاء الممارسات الإسرائيليّة القامعة، والتّمييز العنصريّ المقصود والممنهج، ومحاولات التّهويد المستمرّة، والقوانين الجائرة الضّاغطة الرّامية إلى تهجير المواطنين، وما تمخّض عن ذلك كلّه من ظروف اجتماعيّة قاسية كانتشار الفقر والبطالة، وتفشّي السّلاح والجريمة، والحصار الثّقافي والفكريّ، والإشكالات الاقتصاديّة كرفع الضّرائب، وعدم ترخيص

[1] نهى سمارة، **المرأة العربية: نظرة متفائلة** (بيروت: دار المرأة العربيّة، بيروت، 1993)، 158.

ويحيل رجا سمرين اتّساع دائرة الاتّجاه القوميّ الوطنيّ السّياسيّ في شعر المرأة العربيّة المعاصرة إلى ثلاثة أسباب أوّلها ازدياد مشاركة المرأة العربيّة للرّجل في ميدان العمل القوميّ، ثانيهما يتمثّل فيما وفّرته الثّورات العربيّة للأدب عامّة من حريّة مكنّت المرأة الأديبة من تناول ما كان محظورًا سابقًا من موضوعات. وثالثها تجاوب المرأة الأديبة العربيّة مع المجالات الكثيرة والجديدة التي أحدثتها التّغيرات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة الواسعة النّاجمة عن الثّورات، والتّعبير عن هذه المجالات بالكتابة المفعمة بالمشاعر القوميّة والوطنيّة. انظر: رجا سمرين، **شعر المرأة العربيّة المعاصر 1945–1970** (بيروت، دار الحداثة، 1990)، 472–473 بتصرّف.

البيوت. وقد أظهرت الأدبية الفلسطينيّة تداعيات ذلك، وتأثيراته الفرديّة والمجتمعيّة.

تروم الدّراسة استجلاء إشكاليّة الهويّة وأزمة التّعريف كما طرحتها الأدبية الفلسطينيّة المحليّة في الكتابات (النّثريّة والشِّعريّة) التي خرجت إلى النّور حديثًا في المرحلة الواقعة بين عام 2001 وحتى يومنا هذا؛ وذلك في محاولة للإجابة عن عدد من الأطروحات المعاصرة: في ظلّ الصّراع الإسرائيليّ–الفلسطينيّ وما تبعه من تعدّديات قسريّة، ما واقع الأدب النّسائيّ الفلسطينيّ[2] في ظلّ المعطيات المعاصرة؟ ما أبرز الثّيمات والموضوعات التي سيطرت على أدب المرأة الفلسطينيّة المحلّيّة في الحيّزين: الثّقافيّ والسياسيّ؟ وإلى أيّ مدى تغلغلت السّياسة في هذا الخطاب لتعكس حساسيّة المرحلة وتشظّياتها؟

تمّ اختيار إصدارات هذه الفترة الزمنيّة تحديدًا، ليس من باب التّحقيب أو التّصنيف الزّمنيّ، بل لأنّها شهدت تحوّلات وتطوّرات على المستويين الثّيماتي والتّقنيّ، وذلك بتأثير من التّحوّلات السّياسيّة والسوسيوثقافيّة الطّارئة. كما بدأت تشوبها ملامح الحداثة بشكل أكثر وضوحًا وجرأة. فبعد مرحلة طويلة من الركود الأدبيّ والإبداعيّ النّسائيّ، وسيادة الحسّ التّسجيليّ التّوثيقيّ، وهيمنة النّزعة البكائيّة والوعظيّة وصبغة الإدانة والاتّهام؛ تمكّنت الأدبية الفلسطينيّة المحليّة من التقاط الواقع المعيش بمختلف أبعاده السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، بوعي إنسانيّ ذاتيّ ومجتمعيّ أكبر، ونضج أعمق إزاء القيّمة الأهمّ وهي قضيّة فلسطين الوطن، مع ربطها بقضيّة الإنسانيّة ككل. لم يعد تمرّدها تقليديًّا، بل غدا ما يشبه تمردًا على التمرّد، فصارت أكثر وعيًا بحساسيّة المرحلة، وأكثر تواؤمًا مع تيّار الحداثة الذي فرض نفسه على الأدب عامّة.

اخترقت نصوصها المعايير النمطيّة، ولجأت الى تمييع الحدود بين الأجناس الأدبيّة المختلفة. وعلى مستوى طرح الهمّ الذّاتي والهواجس النّسويّة، يُلاحظ أنّ الكثير من الكتابات النّسائيّة الفلسطينيّة قد جعلت الكاتبة في موقف النّاقد الواعي لمختلف الممارسات المجتمعيّة الخانقة للمرأة، ولم تعد تلك الضّحيّة التي غالبًا ما تلجأ الى التذمّر، والتّعامل مع الآخر/الرّجل من منطلقات صراعيّة نديّة. صارت أكثر اهتمامًا بطرح الإشكاليّات التي خلقها الواقع الاحتلاليّ والممارسات الإسرائيليّة القامعة، وأكثر وعيًا بضرورة إثارة الأسئلة حول الهويّة الاجتماعيّة والهويّة الوطنيّة، وفيما بعد الهويّة الثّقافيّة[3].

إشكاليّة الهُويّة وأزمة التّعريف:

يشهد الفلسطينيّون الذين يعيشون داخل حدود الخطّ الأخضر (خطّ الهدنة 1948) في إسرائيل، ويحملون الجنسيّة الإسرائيليّة حالة من التّخبّط والفوضى التي تمسّ بتعريفهم ومسمّاهم الرّسميّ، تمخّضت عنها مجموعة من المصطلحات المتداولة، من أبرزها: "عرب 48"، "فلسطينيّو 48"، "عرب إسرائيل"، "عرب

---

[2] أثار مصطلح "الأدب النّسائيّ" إشكاليّات عديدة، وشكّل موضع جدل وخلاف بين النقّاد والأدباء، فمنهم من أقرّه ونادى باستخدامه انطلاقًا من الإقرار بوجود خصوصيّة للمرأة، وسمات فنيّة خاصّة بكتابتها، ومنهم من أثار المصطلح حفيظته فتصدّى له ورفضه ولم يعترف بوجود تفرقة بين المرأة والرجل في الكتابة والإبداع الأدبي. انظر تفصيل هذه الآراء في: هيفاء مجادلة، **هموم المرأة العربيّة في أعمال ليلى العثمان** (حيفا: مجمع اللّغة العربيّة، 2011)، 75-82.

[3] للاستزادة حول تطوّر الأدب الفلسطينيّ المحليّ، راجع: محمود غنايم، **المدار الصّعب: رحلة القصّة الفلسطينيّة في إسرائيل** (جامعة حيفا: سلسلة منشورات الكرمل (6)، 1995)، محمود عبّاسي، **تطور الرواية والقصة القصيرة في الأدب العربي في إسرائيل** (حيفا: مكتبة كلّ شيء، 1998)؛

Ibrahim Taha, *The Palestinian Novel: A communication Stud*y (London: Routlefge Curson, 2002).

نبيه القاسم، الحركة الشّعريّة الفلسطينيّة في بلادنا (كفر قرع: دار الهدى للنّشر، 2003)؛ حبيب بولس، الرّحلة الرّابعة، دراسات ونقد (النّاصرة: طباعة دار النّهضة، 2010).

الدّاخل"، "عرب داخل الخطّ الأخضر"، "الدّاخل الفلسطينيّ"، "الوسط العربيّ"، "الأقليّة العربيّة"، "أبناء الأقليّات"، "الجماهير العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل"، "العرب الفلسطينيّون في إسرائيل". ولا تخفى الأبعاد السّياسيّة التي تنطوي عليها هذه المصطلحات، والتي تمّ تذويت قسم منها عبر الإعلام الإسرائيليّ بهدف عزل الفلسطينيّ، وتغريبه وطنيًا وقوميًّا[4].

طرحت الأدبية الفلسطينيّة المحليّة الإشكاليّات التي يعيشها فلسطينيّو 48، وفي مقدّمتها إشكاليّة الهويّة الملتبسة التي يتنازعها قطبان، قطب الجنسيّة الإسرائيليّة بحكمهم يعيشون في إسرائيل، وقطب هويّتهم الفلسطينيّة المرتبطة بجذورهم وكيانهم وقوميّتهم؛ فنجدها تتنقّل مجازًا بين هويّتين مختلفتين. وتكشف عن الازدواجيّة التي تنجم عن هذا الالتباس، فهي كفلسطينيّة مرفوضة في دولة يهوديّة تراها عربيّة تشكّل خطرًا عليها، وك"إسرائيليّة" مرفوضة في المجتمع الإسرائيليّ بسبب مرجعيّتها القوميّة، وكفلسطينيّة صاحبة هويّة مزدوجة مرفوضة من العالم العربيّ الذي قد يعتبرها عميلة ويهوديّة.

عبّرت **رجاء بكريّة** عن هذه الإشكاليّة في روايتها **امرأة الرّسالة** التي ترصد الواقع الفلسطينيّ داخل إسرائيل من خلال قصّة "نشوة" التي تغرق في واقع فرض عليها أن تكون فلسطينيّة في دولة محتلّة تُذيقها صنوف الاضطهاد والتّمييز. تقول بكريّة على لسان بطلتها: "لا أعرف إذا كان الفلسطينيّ هنا محسوبًا على دولتهم كإنسان. بقلب يبكي ويضحك، وحسّ يتألّم ويفرح. لم أشعر لحظة واحدة أنّني داخل تعريف المواطنة التي منحوها لنا منذ رفعنا الأعلام البيضاء، ولا أنت تعرف. وبطاقتي الزّرقاء لم يقرؤوها على الحدود دون أن يصنّفوني ضمن خليّة الإرهاب التي يدرسون أوصافها وفق معايير العرق والدّين والانتماء. يسجّلون المعطيات، ثم يقرّرون وسيلة الاستنزاف"[5].

تكشف الرّواية عن حالة الهويّات المتداخلة (overlapping senses of identity)، والهُويّة الملتبسة التي تحملها الكاتبة كفلسطينيّة تعيش في دولة تعرّف نفسها دولةً يهوديّة، والازدواجيّة التي تنجم عن هذا الالتباس، فهي كفلسطينيّة مرفوضة في دولة يهوديّة تراها عربيّة عدوّة تشكّل خطرًا عليها، وكإسرائيليّة مرفوضة في المجتمع الإسرائيليّ بسبب مرجعيّتها القوميّة، وكفلسطينيّة صاحبة هويّة مزدوجة مرفوضة من العالم العربيّ الذي قد يعتبرها عميلة لليهود[6].

---

[4] حول إشكاليّة تعدّد المصطلح السّياسيّ الوطنيّ، وتداعيات ذلك انظر: عمر عتيق، "تأثير المصطلح الإعلاميّ الإسرائيليّ على الهويّة الثّقافيّة الفلسطينيّة"، في: **قضايا المصطلح النّقديّ والبلاغيّ والعروضيّ والإعلاميّ** (عمّان: دار جرير، 2014)، 157-187.

[5] رجاء بكريّة، **امرأة الرّسالة** (بيروت: دار الآداب، 2007)، 94.

[6] انظر ذلك في تصريحات الكاتبة في حوارات أجريت معها، إذ تؤكّد أنّ التّمييز الحاصل ضدّها لم يحدث من قبل مجتمع ذكوريّ فحسب، بل ينضاف إليه تمييز على "خلفيّة هويّة، كفلسطينيّة محتلّة، ومن رعيل الهزيمة عام 48". تقول: "هذه الازدواجيّة فيما يتعلّق بهذا الوجود المرتبك يجعلني في حالة تساؤل ومصدر خلاف. فالعرب يعتبرونني عميلة ويهوديّة، والإسرائيليّون يعتبرونني عربيّة قذرة أحيانًا، وفلسطينيّة خطرة فقد أقوم على باب متجر بعمليّة انتحاريّة ما. هم لا يعرفون كم أنا جبانة وأحرص على حياتي أكثر منهم، وأنني أحبّ الحياة ضعف ما يحبّون. وأنّني لن أتطوّع في جيش الدّفاع لأنني لا أعتبر هذه الدولة خاصّتي. أنا امرأة في مركز الشّك. حالة غير متّفق عليها. وربّما يبدو ارتباك هذه الحالة، أنا، بين مركّبات عالم غير واضح سبب في دفعي للبحث عن مادّة جديدة لحفر تاريخي" انظر: دوريت جوتيسفيلد، "رجاء بكريّة: المرأة تعيش القسط الأكبر من حياتها مشروع معاناة"، موقع الجبهة. مُتاح في: http://aljabha.org/?i=33879
وحين وقعت روايتها **امرأة الرّسالة** في غرف الرّقابة الخليجيّة، ومُنعت من دخول الكويت، علّقت بكريّة حول ذلك: "لم يفاجئني كثيرًا قرار منع الرّواية من دخول الكويت وبعض دول الخليج رغم رغبتي بوصولها إلى جميع العواصم العربيّة، لكن يقلقني أن تعود أسباب المنع إلى خلفيّات سياسيّة أكثر مما تستند إلى خلفيّات اجتماعيّة/ أخلاقيّة وفق المعايير الملتبسة لدى الرّقابة والمراقبين. لقد أعلنت أكثر من مرّة أنّ الهاجس السّياسي في "إمرأة الرّسالة" يعنيني بالدّرجة الأولى، وقد أردتُ من خلاله أن أحكي للعالم

تتّخذ أزمة الهُويّة لدى "نشوة" مسارًا خاصًا بها، فهي تملك وعيًا إزاء هذا الالتباس، ورغم كلّ أشكال القهر الذي تعانيه جرّاء الاحتلال؛ إلا أنّها لم تلجأ إلى الهروب أو النّكوص، بل تبدو متشبّثة بأرضها وكيانها الفلسطينيّ. "إننا أمام امرأة تصرّ على عدم الهرب من واقعها، عكس شخوص الرّواية العربيّة الحديثة، حيث يشيع فيها هرب العربيّ من واقع حاضره وهو يبحث عن هويّة وجوده، نتيجة الهزائم المتواصلة، والضّغوط النّفسيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة التي يتعرّض لها"[7].

ويحضر المكان في روايتها عنصرًا حيًّا فاعلاً، فهو يتلوّن بلون الحدث، ويساعد على استكشاف خفاياه وأبعاده، متجاوزًا بذلك كونه مجرّد خلفيّة للأحداث والشّخصيات. وترسم بكريّة من خلاله صورة لفلسطين، فتدور في فضاءات الأمكنة لتسجّل تفاصيل حكاياتها معها، تصّور حيفا وبحرها، ويافا، وعكّا وحجارة سورها، ثم تنتقل الى الأرصفة، الحدائق، المقاهي، الحافلات، الحوانيت، مزاريب البيوت، البريد، بائع الحمّص والفول، حواجز الاحتلال. وكأنّها تريد أن ترسم للمتلقّي صورة فلسطين بمدنها وحاراتها لترسخ في الذّاكرة.

تحضر تلك الأمكنة لتبلور نفسيّات الشّخوص وتعبّر عن مشاعرها وهويّتها، فتكشف عن واقعها المأزوم في ظلّ الاحتلال، فقد فقدت الأماكن ملامحها؛ فأضحت باهتة في ظلّ تخاذل عربيّ محليّ وقوميّ: "فلسطين لم تعد فلسطين، ويافا، وعكّا لم تبقيا مدينتين بيدين ممدودتين الى فوق، بل "يافو" و "عكو" بيدين مكتوفتين فوق الصّدر، ومستسلمتين. الغريب أنّ جميع الشّعراء أنكروا هذه الحقيقة في بكائيّاتهم غير المنتهية. هي كانت مثلهم. ذات يوم أنكرت وذات يوم كانت امرأة ثوريّة. لكنّها ذات يوم آخر أيضًا لم تر غير وجوه لوّنها البياض بالكذب. وجوه أزلام القضيّة، والحريّة والقوميّة، فمسحت بلونها حذاءها، ومشت بهم لامعين ومزبدين. لم تسمع احتجاجاتهم. نظرت إليهم وشقرقت نكاية، ومنذ أصبحوا مرايا لأحذيتها عزفت عن نقاشات الحقّ والسّبق"[8].

ويعزو سميح محسن تركيز الكاتبة على المكان، وجعله مركّبًا أساسيًّا إلى اهتمامها بثبيت هويّة المكان الذي تعرّض إلى محاولات طمسه، ونفي هويّته الأصليّة عنه. ولذا لم يكن تثبيت اسم عكّا في إهداءِ الرّواية عبثيًّا، بل جاء متّسقًا مع سياق الحدث. غسّان من عكّا، ونشوة من حيفا، ووائل من رام الله، وفي الرّواية تعود نشوة من لندن إلى يافا؛ ليصبح بذلك المسرح المكانيّ الدّاخليّ ثلاث مدن فلسطينيّة كان لها الأثر الأكبر في تجسيد نشاط الحياة العامّة في فلسطين ما قبل النّكبة، وهي من أكثر المدن الفلسطينيّة التي تعرّضت لمحاولات تغيير صورتها. وتُظهر الكاتبة تلك الأمكنة بأسمائها وتجلّياتها الأولى، وفي تاريخِها الفلسطينيّ للتّأكيد على هويّة المكان. ففي كلّ مدينة من تلك المدن تتقصّد الكاتبة إيراد أسماء الأحياء والشّوارع العربية فيها في مجابهة الاقتلاع، وتغيير صورة ومدلول المكان. وكأنّها تتقصّد التّأكيد على أنّ الوجود الفلسطينيّ داخل الكيان

العربيّ والأجنبيّ على حدّ سواء، وربّما الكويت ودول الخليج تحديدًا عن هويّتي الملتبسة كفلسطينيّة تعيش في دولة اليهود، والتي للآن لم يفهموها. وشخصيّات هذا العمل تخرج من قلب المدن الفلسطينيّة الّتي نسيها العالم العربيّ والأجنبيّ، وتعرض نماذج حيّة لأشكال القهر السّياسيّ الّذي نتعرّض له كأفراد في مناطق ال 48. انظر: زياد خداش، "امرأة الرّسالة رواية فلسطينيّة. موقع دنيا الوطن، استرجع في 19.11.2006. مُتاح في: http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/11/19/63688.html

[7] سميح مسعود، "إمرأة الرسالة للروائيّة الفلسطينيّة رجاء بكريّة: لمسات على أوتار الوطن"، موقع الجبهة، استرجع في: 16.11.2007. مُتاح في: http://aljabha.org/index.asp?i=30373

[8] بكريّة، **امرأة الرّسالة**، 308.

الجديد (إسرائيل) ليس وجودًا عابرًا، بل إنّه الوجود الأصيل، وما عدا ذلك فهو طارئ[9].

ميسون أسدي تكشف عن هذا الصّراع الهويّاتي في روايتها الحديثة **مثلّث توت الأرض**، وعن المحاولات الإسرائيليّة المستمرّة في تهويد العرب، تقول على لسان بطلتها "رجاء": "كنا نلعب بعد المدرسة، في الحارة أولاد وبنات، مع الأقارب وأولاد الجيران، وفي أيّام عيد الاستقلال كانوا يطلبون منّا أن نرتدي ثيابًا سوداء وبيضاء لكي نغنّي مع الجوقة "عيد استقلال بلادي" ونحن لم نفهم شيئًا. كانوا يأخذونا الى الجليل أو الجولان، بل الى تل ابيب! سعوا الى محو هويّتنا القوميّة وتحويلنا إلى إسرائيليّين متصهينين"[10]. تُظهر هذه الفِقْرة الصّراع المتعلّق بما يُسمّى "عيد الاستقلال" في نظر اليهود، و"يوم النّكبة" في نظر الفلسطينيّين، إذ تُلزم إسرائيل مواطنيها الفلسطينيّين بتبنّي مصطلح الاستقلال في شتّى المرافق الرّسميّة.

ويَظهر مدى اهتمام الكاتبة بتبيان الدّور الكبير الذي يقوم به الفلسطينيّون في سبيل الحفاظ على هويّتهم، وزرع حبّ الوطن في نفوس أبنائهم، فهم لم يقفوا موقف الحياد والرّضوخ أمام محاولات الأسرلة والتّهويد؛ بل كان لهم دور واضح لا سيّما من خلال الأحزاب الرّسمية، تقول الكاتبة على لسان "رجاء": "لكن أدبيّات الحزب الشّيوعيّ وصحفه ومجلّاته، وقفت لمسعاهم بالمرصاد، وكرّست عند جميع النّاس اللّغة العربيّة الصّحيحة وحبّهم لها، وزرعت عند العديد حبّهم للوطن، والاعتزاز بلغتهم العربيّة"[11].

سهير أبو عقصة داود تُظهر في روايتها **مدينة الرّصاص** الفجوة بين عرب 1948، والفلسطينيّين الذين يسكنون في الضّفة الغربيّة وغزّة. فالفلسطينيّ في الدّاخل قد يتلقّى الاتّهامات من قبل الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة. يتمثّل ذلك في صراع يدور بين سيرا الفلسطينية التي تحمل الجنسيّة الإسرائيليّة، وبين فلسطينيّ يتّهمها بأنّها وغيرها من عرب الداخل يستولون على وظائف الفلسطينيّين: "أنتم ماذا تفعلون في مؤسّساتنا؟ بالكاد نجد عملًا، تأتون إلى هنا تأخذون وظائفنا القليلة. اذهبي واعملي في دولتك"، يتحدّث معها باعتبارها يهوديّة، ولا تخضع سيرا لتوجّهه وتجيبه بحدّة:"لا تقل دولتي"، وتضيف: "من تقصد بنحن؟ هل أنت وصيٌّ على الوطنيّة؟"[12] وكأنّ الكاتبة تتقصّد طرح هذه الموضوعة لتبيان حالة التّشرذم والانقسام التي تسود فلسطين نفسها، ومدى خطورة ذلك.

وتُعلن **منال بدارنة** في مجموعتها الشّعريّة **قترُ النّدا** بحرقة عن حالة من التّيه والضّياع تجتاحها بسبب افتقارها إلى هويّة واضحة المعالم، وتصرّح برفضها الهويّة الزّرقاء الإسرائيليّة ما دامت تمثّل الاحتلال الإسرائيليّ:

تائهة أنا/ أبحثُ عن هُويّة../ لا يُعجبني اللّونُ الزرقُ لا../ ولا أرتاح للبشرة البيضاء../ يُذكّرني بالرّؤوس "السّادية"/ وعباءة البحر المحروق خلف القضبان / [...] / تائهة أنا/ ولكنّي لست مشرّدة/ إذ أدركُ أنّ وراء تلك الجُبّةِ/ صدرٌ حنون يتوقُ للعناق/ ووراءَ تلك الصُّدفة القَدَريّةِ/ وطنٌ من الحنين الى العراق / [...] / تائهة عيناي/ تبحثُ لها عن هُويّةٍ ومستقرّ/ تكره الأزرق،

---

[9] انظر: سميح محسن، "امرأة الرّسالة للرّوائيّة والتّشكيليّة الفلسطينيّة رجاء بكريّة: مستوياتٌ متعدّدةٌ في قراءةِ النّص"، المثقّف، مُتاح في: http://almothaqaf.com/index.php/readings/87322.html

[10] ميسون أسدي، **مثلّث توت الأرض** (كفر قرع: دار الهدى، 2014)، 65.

[11] ن.م.، 65.

[12] سهير ابو عقصة داود، **مدينة الرّصاص** (رام الله، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، 2002).

تعشقُ لون البحر/ ولا تدري كسف يجتمع النقيضان/ في العشق كل المحرّمات تُباح؟ وفي الصبر مفتاح النجاة[13]

أنوار سرحان صوّرت خصوصيّة الحياة التي يعيشها عرب الداخل، وحجم المعاناة التي يقاسونها جراء العنصريّة المتفشّية، يظهر ذلك في قصّة "فوبيا...وغربة وغزل" في مجموعة **الأفعى والتفّاح**، تحكي قصّة حبيبين يقضيان جلسة رومانسيّة في أحد المطاعم، وسط نظرات متشكّكة مستريبة من زبائن المطعم من اليهود. يحضر شرطيّ ويدّعي وجود جسم مشبوه، تقول الرّاوية: "أسمع صوت طفلة تسأل أمّها ما الذي يحدث فتُجيبها بعبريّة معقوفة: "حيفتس حشود" (غرض مشبوه)، وتُتابع بثقة ومكر وعيناها موجّهتان نحوي: "يبدو أنّ أحد العرب القذرين قد وضع عبوة ناسفة في المطعم"[14]. اقترب منها أحد اليهود، "قال متظاهرًا باللّطف: أف!! متى يحلّ السّلام وتنتهي هذه الحالات؟ إلا أنّ عينيه قالتا عكس ذلك: متى ينتهي وجودكم في هذه الأرض لنحيا بسلام؟!"[15]. ويتّضح أنّ الجسم المشبوه هو عبوة حفّاظات للأطفال نسيها أحد زبائن المطعم. وكأنّ الكاتبة أرادت الإشارة الى القهر الذي يعانيه الفلسطينيّ في المجتمع اليهوديّ، فهو متّهم دومًا، ويسهل النّظر اليه على أنّه إرهابيّ ما دام أنّه عربيّ.

وتبدو الأديبة الفلسطينيّة أكثر وعيًا إزاء هذه الممارسات، فهي تدرك أنّ إسرائيل تسعى بكل قوّتها لطمس معالم الهويّة العربيّة والفلسطينيّة. تقول الكاتبة **سلام عبّاسي** على لسان بطلة روايتها: "هذه الانتفاضة (تقصد انتفاضة الأقصى في 2000) جاءت لتؤكّد من جديد على أنّ وجودنا كعرب داخل كيان هذه الدولة يُدخلنا في حرب استنزاف يوميّة..تحتاج هذه الحرب الى قوى استثنائيّة للثّبات على مواقفنا..والتمسّك بهويّتنا والحفاظ على ملامحها وترسيخها في نفوس الأجيال النّاشئة"[16].

إجمال:

كان لأدب المرأة التي ظلّت رابضة في أراضي فلسطين المحتلّة عام 48 طابع خاص من حيث تناول خصوصيّة هذه الشّريحة الفلسطينيّة التي تعاني التّمييز والعنصريّة الصّهيونيّة.

تُمثّل النّماذج التي رصدتها هذه المقاربة العاجلة أصواتًا نسائيّة فلسطينيّة نجحت في كسر الخطّ التقليديّ في طرحها للقضيّة الفلسطينيّة بمختلف أبعادها. فهي تروي تفاصيل تعيشها في ظلّ أزمة هوياتيّة تعريفيّة تعيشها بتأثير من التّركيبة السّياسيّة المعقدّة التي تعيشها.

نجحت —من خلال كتاباتها–في تعرية الكثير من السّياسات الإسرائيليّة الرّامية الى طمس كل ما يمتّ للعربيّة بصِلة، وعبّرت عن الاغتراب النّفسيّ الذي يعيشه الفلسطينيّ في وطنه، وعن قلقه وتشظّيه وأزماته المتعدّدة جرّاء الاحتلال. أرّقها واقعها الحافل بالتّناقضات والازدواجيّات النّاجمة عن الوضع السّياسيّ غير المستقرّ.

انتبهت الى المحاولات السّاعية إلى تغيب الهويّة الفلسطينيّة والعربيّة وطمسها، فجاءت كتاباتها بمثابة خطاب موجّه واعٍ لتداعيات الاحتلال، وسخّرت أدبها لتجلّي هويّتها التّائهة والمرتبكة.

ثبت المصادر والمراجع

[13] منال بدارنة، **قترُ النّدا** (كفر قرع: دار الهدى للطّباعة والنّشر كريم، 2011)، 40.

[14] أنوار سرحان، **الأفعى والتّفاح** (دالية الكرمل: منشورات معين حاطوم، مطبعة الكلمة، د.ت)، 11.

[15] سرحان، **الأفعى والتّفاح**، 12-13.

[16] سلام عبّاسي–أبو شقرة، **جوريّة** (كفر قرع: دار الهدى للطّباعة والنّشر كريم، 2001)، 64-65.

أبو شقرة، سلام. **جوريّة**. كفر قرع: دار الهدى للطّباعة والنّشر كريم، 2001.

أبو عقصة داود، سهير. **مدينة الرّصاص**. رام الله، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، 2002.

أسدي، ميسون. **مثلّث توت الأرض**. كفر قرع: دار الهدى، 2014.

بدارنة، منال. **قترُ النّدا**. كفر قرع: دار الهدى للطّباعة والنّشر كريم، 2011.

بكريّة، رجاء. **امرأة الرّسالة**. بيروت: دار الآداب، 2007.

بولس، حبيب. **الرّحلة الرّابعة، دراسات ونقد**. النّاصرة: طباعة دار النّهضة، 2010.

جوتيسفيلد، دوريت. "رجاء بكريّة: المرأة تعيش القسط الأكبر من حياتها مشروع معاناة"، موقع الجبهة. مُتاح في: http://aljabha.org/?i=33879

حسين، نسب. **مراوغة الجدران**. كفر قرع: دار الهدى، ع. زحالقة، 2009.

خداش، زياد. "امرأة الرّسالة رواية فلسطينيّة. موقع دنيا الوطن، استرجع في 19.11.2006. مُتاح في:

http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/11/19/63688.html

سرحان، أنوار. **الأفعى والتّفاح**. دالية الكرمل: منشورات معين حاطوم، مطبعة الكلمة، د.ت.

سمارة، نهى. **المرأة العربية: نظرة متفائلة**. بيروت: دار المرأة العربيّة، بيروت، 1993.

سمرين، رجا. **شعر المرأة العربيّة المعاصر 1945–1970**. بيروت، دار الحداثة، 1990.

عبّاسي، محمود. **تطوّر الرّواية والقصّة القصيرة في الأدب العربيّ في إسرائيل**. حيفا: مكتبة كلّ شيء 1998.

عتيق، عمر. "تأثير المصطلح الإعلاميّ الإسرائيليّ على الهويّة الثّقافيّة الفلسطينيّة"، في: **قضايا المصطلح النّقديّ والبلاغيّ والعروضيّ والإعلاميّ**. عمّان: دار جرير، 2014)، 157–187.

غنايم، محمود. **المدار الصّعب: رحلة القصّة الفلسطينيّة في إسرائيل**. جامعة حيفا: سلسلة منشورات الكرمل (6)، 1995.

القاسم، نبيه. **الحركة الشّعريّة الفلسطينيّة في بلادنا**. كفر قرع: دار الهدى للنّشر، 2003.

مجادلة، هيفاء. **هموم المرأة العربيّة في أعمال ليلى العثمان**. حيفا: مجمع اللّغة العربيّة، 2011.

محسن، سميح. "امرأة الرّسالة للرّوائيّة والتّشكيليّة الفلسطينيّة رجاء بكريّة: مستوياتٌ متعدّدةٌ في قراءةِ النّص"، المثقّف، مُتاح في:

http://almothaqaf.com/index.php/readings/87322.html

مسعود، سميح. "امرأة الرسالة للروائيّة الفلسطينيّة رجاء بكريّة: لمسات على أوتار الوطن"، موقع الجبهة، استرجع في: 16.11.2007. مُتاح في:

http://aljabha.org/index.asp?i=30373

Ibrahim Taha. *The Palestinian Novel: A communication Study*. London: Routlefge Curson, 2002.